

ردود القرآن على منكري البعث دراسة نظيفية على سورة "ق"
د. مريم نوافل الدويلة *

(* مدرس بقسم التفسير والحديث - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة الكويت

ملخص البحث:

يهدف هذا البحث إلى تسليط الضوء على ردود القرآن على منكري البعث من جملة الردود^(١) التي حفل بها القرآن الكريم؛ حيث نهج القرآن الكريم في ردوده على شبهات المنكرين منهجاً سليماً قوياً، يجمع بين ما فطرت عليه النفوس من الإيمان وبين ما تقرره العقول السليمة وفق براهين وأدلة واضحة يفهمها المخاطب، ولا يحتاج إلى كد الذهن وإعمال الفكر، قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾^(٢).

وقد عني البحث بالتركيز على أدلة البعث في سورة «ق» كنموذج لهذه الردود من ضمن سور كثيرة، تحدثت عن البعث والنشور، ومن أجل إثراء الجانب التطبيقي فقد عني البحث بالكشف عن بعض الأوجه والأسرار البلاغية، وإظهار بعض المناسبات في سورة «ق». بغية بيان أثر ذلك في كشف المعاني الدقيقة والإقناع بها وسميته: «ردود القرآن على منكري البعث- دراسة تطبيقية على سورة «ق»».

(١) كردود القرآن الكريم على شبهات المنكرين في قضية «التوحيد، والملائكة، والنبوة، والقضاء، والقدر».

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٣٣.

خطة البحث:

أما الخطة التي وضعتها فهي على النحو التالي:

مقدمة، ومبحثان، وخاتمة، وقائمة بالمصادر والمراجع.

المقدمة: وتشمل أهمية الموضوع، وسبب اختياري له، والمنهج الذي اعتمده في كتابته.

المبحث الأول: مفاهيم البحث ومصطلحاته، وينقسم إلى مطلبين:

المطلب الأول: تعريف البعث لغة واصطلاحاً.

المطلب الثاني: التعريف العام بسورة «ق».

المبحث الثاني: دراسة تطبيقية لردود القرآن على منكري البعث، كما تحدثت عنها سورة «ق»، وينقسم إلى أربعة مطالب:

المطلب الأول: إنكار المشركين البعث والرد عليهم، الآيات: من ١ إلى ٥.

المطلب الثاني: دلائل كمال قدرة الله وعلمه تعالى في الآفاق، الآيات: من ٦ إلى ١٥.

المطلب الثالث: دلائل كمال قدرة الله وعلمه في الأنفس خلقاً ومالاً، الآيات: من ١٦ إلى ٣٨.

المطلب الرابع: تسلية الرسول ﷺ بما يعينه على أداء الرسالة، الآيات: من ٣٩ إلى ٤٥.

الخاتمة: وتشتمل على: أهم النتائج التي توصلت إليها.

الفهارس: وتشتمل على: المراجع والمصادر المعتمدة في البحث.

المقدمة:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه. أما

بعد:

فإن المتدبر لكتاب الله تعالى يجده كتاب هداية وإرشاد وتوجيه، وما جاء فيه من ردود على منكري البعث هو نوع من أنواع البيان، قال تعالى: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾^(١). والمتأمل لردود القرآن يجدها تختلف عن جدل المناطقة والمتكلمين^(٢)، وقد حاول البعض إقحام ردود القرآن وبيانه في باب الجدل المعقد. ومن هنا قوي عزمي على التأمل في كتاب الله تعالى، واخترت سورة «ق» نموذجاً لبيان أن أدلة القرآن وبراهينه واضحة يفهمها المخاطب، وهي تختلف عن جدل المتكلمين في الأسلوب والعرض، وتباين سائر الأشكال المنطقية والطرق الجدلية المعقدة^(٣).

ذلك أن القرآن الكريم سلك في ردوده على منكري البعث طرق تصريف الآيات وتفصيلها وضرب الأمثال في أوجز لفظ وأدق معنى للإقناع بها، قال تعالى: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾^(٤)؛ أي: نحولها من نوع إلى آخر من أنواع الكلام تقريراً للمعنى وتقريباً إلى الفهم، أو نصرّفها بالوعد والوعيد، أي: كي يعلموا جليلة الأمر فيرجعوا عما هم عليه من المكابرة والعناد^(٥).

لذا كان لهذا البحث أهميته وحاجته الملحة، وسميته: «ردود القرآن على منكري

البعث - دراسة تطبيقية على سورة «ق»».

أسأل الله عز وجل أن يعلمنا ما جهلنا، وأن ينفعنا بما علمنا، والحمد لله رب العالمين.

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣٨.

(٢) انظر: تفصيل ذلك في: مباحث في علوم القرآن، لمناع القطان، ص ٢٩٤.

(٣) «مهما يكن من قول في استدلالات القرآن الكريم، فإن له مناهج في الاستدلال تعلق على براهين المناطقة والأخيلة المثيرة للإقناع». المعجزة الكبرى، لمحمد أبو زهرة، ١/٢٦٩.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ٦٥.

(٥) روح المعاني، للأكوسي ٤/١٧٢.

منهجي في البحث: وأما المنهج الذي اتبعته في بحثي، فهو على النحو الآتي:

أولاً: قمت بالتعريف اللغوي، ثم اتبعته بالتعريف الاصطلاحي لبعض المصطلحات التي وردت في البحث.

ثانياً: دمج المصطلح القرآني مع السياق الذي ورد فيه، وبيان تناسق المصطلح مع الآية التي ورد فيها، ومع السياق الذي وردت فيه الآية، وذلك لبيان الوحدة الموضوعية في المعنى المراد.

ثالثاً: الوقفة المتأنية الفاحصة أمام ألفاظ الآيات، واستخلاص دلالتها، ولطائفها، واستنباط دروسها، وعبرها، وحكمها، وتسجيل حقائقها.

رابعاً: عزوت النصوص المنقولة إلى مظانها الأصلية.

خامساً: الاقتصار على إظهار بعض المناسبات في سورة ق.

سادساً: في تخريج الأحاديث اتبعت الطريقة الآتية:

أ. إذا كان الحديث في الصحيحين أكتفي بتخرجه من أحدهما.

ب. إذا كان الحديث في غير الصحيحين، فيخرج من كتب الحديث مع بيان درجته.

ج. أقوم بشرح الألفاظ الغريبة والغامضة في الحديث الشريف.

سابعاً: وأخيراً بينت اختياري ووجهة نظري كثمرة علمية وعملية لبحثي.

المبحث الأول: مفاهيم البحث ومصطلحاته:

وينقسم إلى مطلبين:

المطلب الأول: تعريف البعث لغة واصطلاحاً

المطلب الثاني: تعريف عام بسورة ق

المطلب الأول: تعريف البعث لغة واصطلاحاً

تعريف البعث لغة:

يقول الراغب الأصفهاني: «أصل البعث: إثارة الشيء وتوجيهه، يقال: بعثته فانبعث، ويختلف البعث بحسب اختلاف ما علّق به، فبعثت البعير: أثرتة وسيرته، وقوله عزوجل: ﴿وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾^(١)؛ أي: يخرجهم ويسيرهم إلى يوم القيامة، ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾^(٢)»^(٣).

تعريف البعث اصطلاحاً:

«البعث: هو المعاد، وقيام الأرواح والأجساد يوم القيامة»^(٤)، فيحاسب الخلائق، ويوفى كل عامل عمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر»^(٥).

«وبالمقارنة بين المعنى الشرعي لكلمة «البعث»، والمعنى اللغوي لها؛ نجد ترابطاً ظاهراً، وذلك أن من معاني البعث في اللغة: الإثارة لما كان ساكناً من قبل، وكذا: الإرسال، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾^(٦)، وهذا ما جاء في كلمة البعث مراداً بها معناها الشرعي الذي هو إرسال الحياة إلى الأموات وإثارته

(١) سورة الأنعام، من الآية: ٣٦.

(٢) سورة المجادلة، من الآية: ٦.

(٣) المفردات في ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني، ص: ٥٩.

(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ٥/ ٣٩٦.

(٥) المرجع السابق، ٥/ ٤٦٩.

(٦) سورة النحل، من الآية: ٣٦.

من جديد لتتهياً لما يراد منها من الانطلاقة إلى الموقف للحساب»^(١).

المطلب الثاني: تعريف عام بسورة «ق»

أولاً: تسمية السورة:

سميت هذه السورة بسورة ﴿ق﴾ ، وقد وردت هذه التسمية في كلام السلف الصالح من صحابة رسول الله ﷺ ، ومن ذلك ما روي عن عمر رضي الله عنه ، أنه خرج يوم عيد فسأل أبا واقد الليثي: بأي شيء كان النبي يقرأ في هذا اليوم؟ فقال: بـ﴿ق﴾ و﴿أَقْرَبَتْ﴾^(٢)، وبهذه التسمية سميت في المصاحف وكتب التفسير.

وسميت كذلك: ﴿ق﴾ و﴿الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾، فعن أبي واقد الليثي قال: سألتني عمر بن الخطاب عما قرأ به رسول الله في يوم العيد؟ فقلت: بـ﴿أَقْرَبَتْ السَّاعَةَ﴾، ﴿ق﴾ و﴿الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾^(٣).

وهناك تسمية اجتهادية «الباسقات»^(٤). ذكرها بعض العلماء؛ كالبقاعي^(٥) ، والسيوطي في «الإتقان» ولم يعزه^(٦). ولعل التسمية لها بهذا الاسم ما أشار إليه ابن عاشور، حيث يقول: «والوجه أن تكون تسميتها هذه على اعتبار وصف لموصوف محذوف؛ أي: سورة النخل الباسقات، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لِّمَا طَلَعْنَ نَضِيدٌ﴾^(٧)»^(٨).

(١) الحياة الآخرة، د/ غالب عواجي ٦٢/١.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب: صلاة العيدين، باب: ما يقرأ به في صلاة العيدين، ٦٠٦/٢ ح: ٨٩٠.

(٣) أخرجه مسلم كتاب: صلاة العيدين، باب: ما يقرأ به في صلاة العيدين، ٦٠٧/٢ ح: ٨٩١.

(٤) علماً بأن هذه التسمية عند البحث لم أقف على ما يدل على تسميتها بهذا الاسم من حديث أو أثر.

(٥) انظر: مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور ١٣/٣.

(٦) انظر: الإتقان في علوم القرآن» لجلال الدين السيوطي ١٥٧/١.

(٧) سورة: ق، الآية: ١٠.

(٨) تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور ٢٥/٢٧٤.

ثانياً - عدد آياتها:

خمس وأربعون^(١)، وهي مكية كلها، وهو الراجح في قول الحسن وعكرمة وعطاء.

وروي عن ابن عباس وقتادة أنها مكية، إلا آية، وهي قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾^(٢).

ثالثاً: فضل سورة «ق»:

سورة ﴿ق﴾ أول الحزب المفصل على الصحيح^(٤)، وقد جاء في فضل المفصل ما روي عن واثلة بن الأسقع^(٥) أن النبي ﷺ قال: «أعطيت مكان التوراة السبع، وأعطيت مكان الزبور المثني، وأعطيت مكان الإنجيل المثاني، وفضلت بالمفصل»^(٦). وروي أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بهذه السورة في الجامع الكبار؛ كالعيد والجمع.

- فعن أبي واقد الليثي^(٧) قال: سألتني عمر بن الخطاب عما قرأ به رسول الله ﷺ في يوم العيد؟ فقلت: بـ ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ﴾، ﴿ق﴾ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ. وعن أم هشام

(١) فتح القدير للشوكاني ٩٣/٥.

(٢) سورة: ق، الآية: ٣٨.

(٣) «فتح القدير الجامع بين فني الدراية والرواية» للشوكاني ٩٣/٥.

(٤) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير ٧/٢٩٢.

(٥) واثلة بن الأسقع ﷺ الليثي من أهل الصفة، شهد تبوك مع النبي ﷺ، وأخذ القراءة عن النبي ﷺ، قرأ عليه يحيى بن الحارث الداري، وروى عنه مكحول ويونس بن ميسرة، توفي سنة خمس وثمانين وله ثمان وتسعون سنة - سير أعلام النبلاء، للذهبي، ٣/٣٨٤.

(٦) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده»، حديث واثلة بن الأسقع، ١٨٨/٢٨، ح: ١٦٩٨٢، قال الألباني: الحديث بمجموع طرقه صحيح، والله أعلم. انظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة»، ٣/٤٦٩ ح: ١٤٨٠.

(٧) الحارث بن عوف بن أسيد بن جابر بن عويرة بن عبد مناة بن شجع بن عامر بن ليث، وليث بطن من كنانة وهو مشهور بكنيته، أسلم قبل الفتح، روى عن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وروى عنه سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، توفي سنة ثمان وستين وعمره سبعون سنة. - أسد الغابة في معرفة الصحابة، لابن الأثير الجزري، ١/٣٨٨ - سير أعلام النبلاء، للذهبي ١٧٢/٤.

بنت حارثة بن النعمان^(١) قالت: لقد كان تَنَوَّرْنَا وَتَنَوَّرُ^(٢) رسول الله ﷺ واحداً، سنتين أو سنة وبعض سنة، وما أخذت ﴿قَدْ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ إلا عن لسان رسول الله ﷺ يقرأها كل يوم جمعة على المنبر، إذا خطب الناس^(٣).

«والقصد: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بهذه السورة في الجامع الكبار؛ كالعيد والجمع؛ لاشتمالها على ابتداء الخلق والبعث والنشور، والمعاد والقيام، والحساب، والجنة والنار، والثواب والعقاب، والترغيب والترهيب»^(٤).

رابعاً: مقصود السورة:

تعالج السورة أصول العقيدة الإسلامية «الوحدانية، والرسالة، والبعث»، ولكن المقصد الذي يكاد يكون هو الطابع الخاص للسورة هو تقرير البعث بعد الفناء الذي جاءت به رسالة محمد للفصل بين العباد بالعدل، وهو الأمر الذي أنكره كفار قريش، وتعجبوا منه، فكان الرد عليهم ببيان دلائل قدرة الله تعالى في خلقه.

يقول البقاعي: «ومقصودها: تصديق النبي ﷺ في الرسالة التي معظمها الإنذار، وأعظمه الإعلام بيوم الخروج بالدلالة على ذلك بعد الآيات المسموعة الغنية بإعجازها عن تأييد بالآيات المرئية الدالة قطعاً على الإحاطة بجميع صفات الكمال، وأحسن من هذا أن يقال: مقصودها الدلالة على إحاطة القدرة التي هي نتيجة ما ختمت به «الحجرات» من إحاطة العلم لبيان أنه لا بد من البعث ليوم الوعيد، فتكتنف هذه الإحاطة بما يحصل من الفصل بين العباد بالعدل؛ لأن ذلك هو سر الوجود»^(٥).

(١) أم هشام بنت حارثة بن النعمان ٭ بايعت بيعة الرضوان، الأنصارية النجارية، لها صحبة، روت عن النبي ﷺ، روى عنها: عبد الله بن محمد بن معن، ومحمد بن عبد الرحمن بن سعد بن زرارة وغيرهم. تهذيب الكمال، للحافظ المزي، ٤٩٣/٢٢.

(٢) التنور: ما يخبز به، وفيه إشارة إلى حفظها ومعرفتها بأحوال النبي ﷺ وقربها من منزله - شرح النووي على مسلم للنووي، ١٦١/٦.

(٣) أخرجه مسلم - كتاب: الجمعة، - باب: تخفيف الصلاة والخطبة، ٥٩٥/٢، ح: ٨٧٣.

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣٩٣/٧، وانظر: «شرح النووي على صحيح مسلم» للنووي ١٨٢/٦.

(٥) نظم الدرر للبقاعي ٣٩٥/١٨، وانظر: مساعد النظر للإشراف على مقاصد السور للبقاعي ١٤/٣.

المبحث الثاني: دراسة تطبيقية لردود القرآن على منكري البعث، كما تحدثت عنها سورة ق

وتنقسم إلى عدة مطالب:

المطلب الأول: إنكار المشركين البعث والرد عليهم: الآيات من ١ إلى ٥

قال تعالى: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ۝٣ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كَنْبٌ حَفِيفٌ ۝٤ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٌ ۝٥﴾

أولاً: المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

بين افتتاحية السورة وخاتمتها مناسبات عدة، منها:

١- التنويه بشأن القرآن؛ فقد ابتدأت بالقسم به: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾، وختمت بأمر النبي بالتذكير بالقرآن من يخاف وعيده: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾^(١)، فافتتح بما اختتم به^(٢).

٢- ذكرت الافتتاحية تعجب المشركين وتكذيبهم للنبي ﷺ ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾، واختتمت بأمر النبي ﷺ بالصبر على ما يقولون: ﴿تَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾^(٣) «من نفي البعث وتكذيب الآيات الناطقة، وغير ذلك مما لا خير فيه، وهذا تسليية للرسول ﷺ وتهديد لهم»^(٤)، فحصلت المناسبة بين المبتدأ والمختتم.

٣- ذكرت الافتتاحية شبهة المنكرين للبعث: ﴿أءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾، فكانت الخاتمة تقرير أمر البعث: ﴿يَوْمَ تَشْقَى الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾

(١) سورة: ق، من الآية: ٤٥.

(٢) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٨/١٩٢، بتصرف.

(٣) سورة: ق، من الآية: ٤٥.

(٤) روح المعاني للأكوسي ٢٥/١٩٥.

ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿١﴾ (٢).

ثانياً: الرد على شبهات منكري البعث:

١- التنويه بشأن إعجاز القرآن: ﴿قَفَّ وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدِ﴾ .

سورة ﴿قَفَّ﴾ إحدى السور التي بدأت بأحد الحروف المقطعة؛ وهو: ﴿قَفَّ﴾ ، وللعلماء فيها أقوال شتى^(٣). والراجح فيها: أنها «مما استأثر الله بعلمه»^(٤). أما الحكم التي اقتضت إيراد هذه الحروف في أوائل بعض السور، فمنها: أنها جاءت «بيانا لإعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، هذا مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها»^(٥). قوله تعالى: ﴿قَفَّ وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدِ﴾: «قسم بالقرآن، والقسم به كناية عن التنويه بشأنه؛ لأن القسم لا يكون إلا بعظيم عند المقسم، فكان التعظيم من لوازم القسم، وأتبع هذا التنويه الكنائى بتنويه صريح بوصف «القرآن» بـ«المجيد»^(٦). «أي: الكريم العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد»^(٧)، «وجواب القسم هو مضمون الكلام بعد القسم، وهو إثبات النبوة، وإثبات المعاد، وتقريره وتحقيقه وإن لم يكن القسم متلقى لفظاً، وهذا كثير في أقسام القرآن، كما تقدم في قوله: ﴿صَّ وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ﴾^(٨) ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾^(٩). ويقول ابن جزى: «جواب هذا القسم محذوف، تقديره: ما ردوا أمرك بحجة، وما كذبوك ببرهان، وشبه ذلك وعبر عن هذا المحذوف، وقع الإضراب بـ: بل»^(١٠). وقيل

(١) سورة: ق، الآية: ٤٤.

(٢) انظر: التفسير الكبير، للفخر الرازي، ١٩٢/٢٨ بتصرف، ومراصد المطالع، للسيوطي، ١/٦٧.

(٣) انظر تفصيل ذلك في: «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير ١/٥٦-١٦٢.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي ١/١٥٤.

(٥) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ١/١٦٢.

(٦) تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور ٢٥/٢٧٦، ٢٧٧.

(٧) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير ٧/٣٩٥.

(٨) سورة: ص، الآية: ١، ٢.

(٩) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ٧/٣٩٥.

(١٠) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزى، ٢/٣٠٠.

غير ذلك . (١)

٢- الرد على تكذيب المشركين للنبي ﷺ؛ لأنه من البشر، ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ أي: تعجبوا من إرسال رسول إليهم من البشر» (٢)، «وعبر عن الرسول بوصف منذر وهو المخبر بشرًا سيكون؛ للإيماء إلى أن عجبهم كان ناشئًا عن صفتين في الرسول : إحداهما: أنه مخبر بعذاب يكون بعد الموت...، والثانية: كونه من نوع البشر» (٣). «وقد وصف الرسول ﷺ ابتداء بصفة منذر قبل وصفه بأنه منهم؛ ليدل على أن ما أنذرهم به هو الباعث الأصلي لتكذيبهم إياه، وأن كونه منهم إنما قوَّى الاستبعاد والتعجب» (٤)، ووضع المظهر في موضع المضمرة، ﴿فَقَالَ الْكٰفِرُونَ هٰذَا سِئْرٌ عَجِيبٌ﴾: «إما لسبق اتصافهم بما يوجب كفرهم، وإما للإتيان بأن تعجبهم من البعث لدلالته على استقصارهم لقدرة الله سبحانه عنه، مع معاينتهم لقدرة تعالى على ما هو أشق منه في قياس العقل من مصنوعات البديعة أشنع من الأول وأعرف في كونه كفرًا» (٥).

٣- الرد على تكذيب المشركين للبعث بتقرير كمال علم الله تعالى :

شبهة المنكرين للبعث: قال تعالى: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ ، «أي: يقولون: أنذا متنا وبلينا، وتقطعت الأوصال منا، وصرنا ترابًا، كيف يمكن الرجوع بعد ذلك إلى هذه البنية والتركيب؟ ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ ؛ أي: بعيد الوقوع، ومعنى هذا: أنهم يعتقدون استحالة وعدم إمكانه» (٦). يقول ابن القيم: «فإن شبه المنكرين له - للبعث - كلها تعود إلى ثلاثة أنواع: أحدها: اختلاط أجزائهم بأجزاء الأرض على وجه لا يتميز، ولا يحصل معه تمييز شخص عن شخص. الثاني: أن القدرة لا تتعلق

(١) انظر: الدر المصون، للسمين الحلبي، ١٠ / ١٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ٧ / ٣٩٥.

(٣) التحرير والتنوير، لابن عاشور، ٢٥ / ٢٧٩ بإيجاز.

(٤) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٥) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود ٦ / ١٢٢.

(٦) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ٧ / ٣٩٥. إرشاد العقل السليم، لأبي السعود ٦ / ١٢٢.

بذلك. **الثالث:** أن ذلك أمر لا فائدة فيه، أو إنما الحكمة اقتضت دوام هذا النوع الإنساني شيئاً بعد شيء، هكذا أبدياً، كلما مات جيل خلفه جيل آخر، فأما أن يميت النوع الإنساني كله ثم يحييه بعد ذلك فلا حكمة في ذلك، فجاءت براهين المعاد في القرآن مبنية على ثلاثة أصول: **أحدها:** تقرير كمال علم الرب سبحانه. **والثاني:** تقرير كمال قدرته. **الثالث:** كمال حكمته^(١). وبالتأمل في آيات سورة ﴿قَفَّ﴾ نجد هذه البراهين واضحة وجليّة.

قال الله تعالى راداً على منكري البعث: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾؛ أي: ما تأكل من أجسادهم في البلى، نعلم ذلك ولا يخفى علينا أين تفرقت الأبدان؟ وأين ذهب؟ وإلى أين صارت؟^(٢). «فأساس مبنى الرد هو عموم علم الله تعالى؛ لأنه يجمع إبطال الاحتمالات التي تنشأ عن شبهتهم، فلو قال: نحن قادرون على إرجاع ما تنقص الأرض منهم؛ لخطر في وساوس نفوسهم شبهة أن الله وإن سلمنا أنه قادر فإن أجزاء الأجساد إذا تفرقت لا يعلمها الله، حتى تتسلط على جمعها قدرته، فكان البناء على عموم العلم أقطع لاحتمالاتهم»^(٣). يقول ابن القيم: «وتأمل كيف دلت السورة صريحاً على أن الله سبحانه يعيد هذا الجسد بعينه الذي أطاع وعصى، فينعمه ويعذبه، كما ينعم الروح التي آمنت بعينها، ويعذب التي كفرت بعينها، لا أنه سبحانه يخلق روحاً أخرى غير هذه فينعمها ويعذبها، كما قاله من لم يعرف المعاد الذي أخبرت به الرسل، وإنما تعجبوا من عودهم بأعيانهم، بعد أن مزقهم البلى وصاروا عظاماً ورفاتاً، فتعجبوا أن يكونوا هم بأعيانهم مبعوثين للجزاء، ولهذا قالوا: ﴿أَيُّذَا مِنَّا وَكُنَّا نُرَابًا وَعَظْمًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾^(٤)، وقالوا: ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾. ولو كان الجزاء إنما هو لأجسام غير هذه، لم يكن ذلك بعثاً ولا رجعاً، بل يكون ابتداءً، ولم يكن لقوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ كبير معنى»^(٥). هذا؛ «وعبر بمن في قوله: ﴿مِنْهُمْ﴾؛ لأن الأرض لا

(١) بدائع التفسير، لابن القيم، ١٩/٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ٣٩٥/٧.

(٣) تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور، ٢٨١/٢٥.

(٤) سورة: الصافات، الآية: ١٦.

(٥) «بدائع التفسير» لابن القيم، ٢٠، ١٩/٣.

تأكل عجب الذنب»^(١). فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «كل ابن آدم يأكله التراب»^(٢)، إلا عجب الذنب، منه خلق، وفيه يُركب»^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾، ﴿وَعِنْدَنَا﴾، أي: عند الله تعالى، ﴿وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾؛ أي: حافظ لكل شيء»^(٤). «فالعلم شامل، والكتاب أيضًا فيه كل الأشياء مضبوطة»^(٥).

يقول ابن عاشور: «وعطف على قوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا نَنْقُصُ الْأَرْضَ مِنْهُمْ﴾ قوله: ﴿وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾، عطف الأعم على الأخص، وهو بمعنى تذييل لجملة: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا نَنْقُصُ الْأَرْضَ مِنْهُمْ﴾؛ أي: وعندنا علم بكل شيء علمًا ثابتًا، فتنكير: ﴿كِتَابٌ﴾ للتعظيم، وهو تعظيم التعميم؛ أي: عندنا كتاب كل شيء»^(٦)، «ثم بين تعالى سبب كفرهم وعنادهم واستبعادهم ما ليس ببعيد»^(٧)، فقال: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ﴾ «إضراب وانتقال من بيان شناعتهم السابقة إلى بيان ما هو أشنع منه وأفظع، وهو تكذيبهم للنبوة الثابتة بالمعجزات الباهرة»^(٨)، «وما تضمنته من الإخبار بالحق وغير ذلك»^(٩). قوله: ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ «أي: من غير تأمل وتفكر، تقليدًا للأباء، وجاء بكلمة التوقع؛ إشعارًا بأنهم

(١) تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، لمحمد الأمين الهرري، ٢٧/٤٢٥.
(٢) يقول النووي: «قوله: عَجَبُ الذَّنْبِ، أي: العظم اللطيف الذي في أسفل الصلب، وهو رأس العصعص، ويقال له: عجم ب الميم، وهو أول ما يخلق من الأدمي، وهو الذي يبقى منه ليعاد تركيب الخلق عليه». ويقول: «قوله صلى الله عليه وسلم: «كل ابن آدم يأكله التراب إلا عجم الذنب» هذا مخصوص، فيخص منه الأنبياء- صلوات الله وسلامه عليهم -، فإن الله حرم على الأرض أجسادهم». «شرح النووي على صحيح مسلم» ٩٢/١٨

(٣) أخرجه مسلم، كتاب: الفتن وأشرط الساعة، باب: ما بين النفختين، ٤/٢٢٧٠، ح: ٢٩٥٥.

(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير ٩/٣٩٥.

(٥) تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور، ٢٥/٢٨٣.

(٦) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(٧) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ٧/٣٩٥.

(٨) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود، ٦/١٢٣.

(٩) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي، ٢/٣٦٣.

علموا بعد علو شأنه وبإعجازه الشاهد على حقيقته، فكذبوا بغياً وحسداً^(١). ﴿فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيحٍ﴾: «المريخ المختلف، المضطرب، الملتبس، المنكر خلاله»^(٢): أي: «لا قرار في أنفسهم في هذا التكذيب، اضطربت فيه أحوالهم، كلها من أقوالهم في وصف القرآن، فإنهم ابتدروا فنفوا عنه الصدق، فلم يتبينوا بأي أنواع الكلام الباطل يلحقونه»^(٣). «وهذا حال كل من خرج عن الحق، مهما قال بعد ذلك فهو باطل»^(٤).

المطلب الثاني: دلائل كمال قدرة الله وعلمه في الآفاق، من الآية ٦ إلى الآية ١٥

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ۖ وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَواسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ نَزَجًا بِهَيْجٍ ۗ تَبَصَّرَهُ وَذَكَرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ۗ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَبَّ وَنَخْلًا وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۗ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ۗ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ۗ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ۗ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ۗ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ۗ أَفَعَيْنَا بِالْحَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ﴾. وينقسم إلى مقصدين:

أولاً: مناسبة الآيات لافتتاحية السورة:

ذكر الله تعالى في افتتاحية السورة شبهة المنكرين للبعث، وهي: ﴿أَءَاذًا مِنَّا وَكُنَّا نُرَابًا وَعَظْمًا آيَةً لِمَبْعُوثُونَ﴾، ولما كان منشأ هذه الشبهة هو الشك في علم الله وقدرته؛ كان الجواب بذكر تمام إحاطة الله لهم وعلمه بأحوالهم وهم في قبورهم، فقال: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾، ثم أردف سبحانه بذكر الأدلة الدالة على كمال قدرته سبحانه، فقال: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا﴾.

(١) روح البيان، لإسماعيل حقي، ١٠٥/٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ٣٩٥/٧.

(٣) تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور، ٢٨٥/٢٥.

(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ٣٩٥/٧.

ذكر الله تعالى في الافتتاحية تكذيب المشركين للرسول ﷺ بقوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾، أردف ذلك ذكر المكذبين للرسول من قبله، وبيان ما آل إليه أمرهم؛ تسلياً لرسوله ﷺ وعبرة لهم، وتنبيهاً إلى أن حاله معهم كحال من تقدمه من الرسل كذبوا فصبروا فأهلك الله مكذبيهم ونصرهم ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾^(١).

- ذكر الله تعالى في الافتتاحية: ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾، فقال الله تعالى «مسبباً عن تكذيبهم بعد ما ذكر أنه خلق جميع الوجود: ﴿أَفَعِينَا بِالْخَلْقِ﴾»^(٢).

بين الله تعالى في الافتتاحية كمال علمه بقوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾، وأخبر الله تعالى في هذا المطلب: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْنَاهُ نُؤْسُوسٍ بِهِ نَفْسُهُ﴾. «التنبيه على سعة علم الله تعالى بأحوالهم كلها، فإذا كان يعلم حديث النفس فلا عجب أن يعلم ما تنقص الأرض منهم»^(٣).

ثانياً: دلائل البعث في الآفاق:

١- النظر والتفكر في ملكوت السموات: قال تعالى: ﴿أَفَئِمَّ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْفَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا هِيَ مِنْ فُرُوجٍ﴾. «يقول الله تعالى منبهاً للعباد على قدرته العظيمة التي أظهر بها ما هو أعظم مما تعجبوا مستبعدين لوقوعه»^(٤)، «فدعاهم سبحانه إلى النظر في العالم العلوي وبنائه وارتفاعه واستوائه وحسنه والتتامه»^(٥). «فقوله تعالى: ﴿أَفَئِمَّ يَنْظُرُوا﴾ يشمل نظر البصر ونظر البصيرة؛ نظر البصر يكون بالعين، ونظر البصيرة يكون بالقلب؛ أي: التفكير»^(٦). «ثم يتفاوت الناس في إدراك ما في خلق الكواكب والشمس والقمر ونظامها من دلائل على مقدار تفاوت علومهم وعقولهم، والآية

(١) تفسير المراغي، لأحمد المراغي ٢٦/١٥٧، وانظر تفسير الروح والريحان، للهروي، ٢٧/٤٢٠

(٢) نظم الدرر، للبقاعي ١٨/٤١٨.

(٣) التحرير والتنوير، لابن عاشور، ٢٦/٢٩٩.

(٤) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير، ٧/٣٩٦.

(٥) «بدائع التفسير» لابن القيم ٣/٢٩.

(٦) «تفسير القرآن العظيم» لابن عثيمين، سورة «ق»، ص: ٧٧.

صالحة لإفهام جميع الطبقات»^(١).

٢- النظر والتفكير في ملكوت الأرض؛ قال تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوْسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾، ﴿تَبَصَّرَةٌ وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾. «الآية إشارة إلى دليل آخر من أدلة القرآن للرد على منكري البعث، حيث دعاهم سبحانه وتعالى «إلى النظر إلى العالم السفلي وهو الأرض، وكيف بسطها وهياها بالبسط لما يراد منها، وثبتها بالجبال، وأودع فيها المنافع، وأنبت فيها من كل صنف حسن من أصناف النبات على اختلاف أشكاله وألوانه ومقاديره ومنافعه وصفاته»^(٢). إلى غير من ذلك من الآيات العظيمة، فهذا أكبر دليل على أن الله قادر على إحياء الموتى الذي أنكره هؤلاء المكذبون لرسول الله ﷺ، وقالوا: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾^(٣)، فالقادر على خلق هذه المخلوقات العظيمة قادر على إحياء الموتى»^(٤).

قوله تعالى: ﴿تَبَصَّرَةٌ وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾؛ أي: «الناظر فيها يتبصر أولاً، ثم يتذكر ثانياً، وأن هذا لا يحصل إلا لعبد منيب إلى الله بقلبه وجوارحه»^(٥).

«وخص العبد المنيب بالتبصرة والذكرى، وإن كان فيما ذكر من أحوال الأرض إفادة التبصرة والذكرى لكل أحد؛ لأن العبد المنيب هو الذي ينتفع بذلك، فكأنه هو المقصود من حكمة تلك الأفعال، وهذا تشریف للمؤمن وتعريض بإهمال الكافرين التبصر والتذكر»^(٦).

٣- لفت أنظارهم إلى إحياء الأرض بالمطر بعد موتها، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝٩ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَعْمٌ نَضِيدٌ ۝١٠ زُرْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾. «بعد النظر والتذكير والتبصير في صنع

(١) «تفسير التحرير والتنوير» لابن عاشور، ٢٥/٢٨٥-٢٨٧.

(٢) بدائع التفسير، لابن القيم، ٣/٢٠.

(٣) سورة: ق، الآية: ٣.

(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن عثيمين، سورة «ق»، ص: ٧٩.

(٥) بدائع التفسير، لابن القيم، ٣/٢٠.

(٦) تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور، ٢٥/٢٨٧.

السموات وصنع الأرض وما فيهما من وقت نشأتها نقل الكلام»^(١). إلى الاستدلال «بتفصيل الإنبات الذي سبق إجماله في قوله: ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ ، لما فيه من سوق العقول إلى التأمل في دقيق الصنع لذلك الإنبات، وأن حصوله بهذا السبب وعلى ذلك التطور أعظم دلالة على حكمة الله وسعة علمه، مما لو كان إنبات الأزواج بالطفرة؛ إذ تكون حينئذ أسباب تكوينها خفية، فإذا كان خلق السموات وما فيها، ومد الأرض، وإلقاء الجبال فيها، دلائل على عظيم القدرة الربانية لخباء كفيات تكوينها، فإن ظهور كفيات التكوين في إنزال الماء وحصول الإنبات والإثمار دلالة على عظيم علم الله تعالى»^(٢).

ويضيف الرازي عند قوله: ﴿فَأَنْبَتْنَا﴾ قائلاً: «استدل بنفس النبات؛ أي: الأشجار تنمو وتزيد، فكذلك بدن الإنسان بعد الموت ينمو ويزيد بأن يرجع الله تعالى إليه قوة النشوء والنماء، كما يعيدها إلى الأشجار بواسطة ماء السماء»^(٣).

روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «... ثم ينزل الله من السماء ماءً فينبتون، كما ينبت البقل، ليس من الإنسان شيء إلا يبلى، إلا عظمًا واحدًا، وهو عجب الذنب، ومنه يركب الخلق إلى يوم القيامة»^(٤).

«وهذا الشاهد - الآية - من عظيم قدرته بالحس أعظم مما أنكره الجاحدون للبعث»^(٥)؛ ويقول أبو السعود عند قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾: «جملة قدم فيها الخبر للقصد إلى القصر، وذلك إشارة إلى الحياة المستفادة من الأحياء وما فيه من معنى البعد للإشعار ببعدها؛ أي: مثل تلك الحياة البديعة حياتكم بالبعث من القبول، لا شيء مخالف لها، وفي التعبير عن إخراج النبات من الأرض بالإحياء وعن حياة الموتى بالخروج تفخيم لشأن الإنبات وتهوين لأمر البعث وتحقيق للمماثلة بين إخراج

(١) المرجع السابق، ٢٥/٢٩٠-٢٩١.

(٢) تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور، ٢٥/٢٨٥-٢٨٧.

(٣) مفاتيح الغيب، للفخر الرازي، ٢٨/١٥٦.

(٤) أخرجه البخاري، كتاب: التفسير، باب: يوم ينفخ في الصور، ٩/٦٩٩ ح: ٤٩٣٥، «فتح الباري».

(٥) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ٧/٣٩٦.

النبات وإحياء الموتى لتوضيح منهاج القياس وتقريبه إلى أفهام الناس»^(١)، فكانت جملة ﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾^ع؛ فذلكة؛ للاستدلال على إمكان البعث الذي تضمنته الجمل السابقة»^(٢).

٤- إخبار الله تعالى بما وقع للمكذبين للرسول عليهم السلام في الأمم السابقة، قال تعالى: ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّيِّسِ وَثَمُودٌ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدُ﴾. وهذه الآيات دليل آخر يضاف إلى الأدلة السابقة؛ حيث انتقل سبحانه إلى تقرير البعث بأحسن تقرير، وأوجز لفظ، وأبعده عن كل شبهة وشك، فأخبر «الله تعالى متهدداً لكفار قريش بما أحله بأشباههم ونظرائهم وأمثالهم من المكذبين قبلهم من النقمات والعذاب الأليم في الدنيا كقوم نوح وما عذبهم الله به من الغرق العام لجميع أهل الأرض»^(٣)، و﴿وَأَصْحَابُ الرَّيِّسِ﴾، وهم: قوم شعيب وقيل غير ذلك»^(٤)، «والرس: أي: البئر التي تقوضت بهم، فحسف مع ما حولها، فذهبت بهم وبكل ما لهم»^(٥). أما ثمود قوم صالح عليه السلام، كذبوا رسولهم، فأخذتهم الصيحة، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي رِجْرِهِمْ جَشِيمِينَ ﴿٦٧﴾ كَانَتْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُوداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لثَمُودَ﴾^(٦). وأما عاد فهم قوم هود عليه السلام، فأخذتهم الريح القوية، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادُ فَاهْتَكَمُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازٌ مُخْلِ حَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾^(٧). وأما إخوان لوط، فقد انصرفوا عن الفطرة السليمة، وكذبوا رسولهم، فقال الله تعالى في عقابهم: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُورٍ﴾^(٨).

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم» لأبي السعود، ١٢٤/٦.

(٢) «تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور، ٢٥/٢٩٤.

(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ٧/٣٩٧.

(٤) فتح القدير، للشوكاني، ٥/٧٤.

(٥) نظم الدرر، للبقاعي، ١٨/٤١٥.

(٦) سورة: هود، الآية: ٦٧، ٦٨.

(٧) سورة: الحاقة، الآية: ٦-٨.

(٨) سورة: هود، الآية: ٨٢.

وأما أصحاب الأيكة، «فهم قوم شعيب عليه السلام»^(١)، أصابتهم الرجفة، قال الله تعالى: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِيْمِينَ﴾^(٢). وأما قوله تعالى: ﴿وَقَوْمٌ تَبِعَ﴾ «هو تبع الحميري»^(٣)، «قال قتادة:»^(٤)، «ذم الله تعالى قوم تبع، ولم يذمه»^(٥)، «فأهلك الله قومه وخرّب بلادهم وشردهم في البلاد»^(٥)، «وضرب بهم لقريش مثلاً؛ لقربهم من دارهم وعظمتهم في نفوسهم، فلما أهلكهم الله تعالى ومن قبلهم كان من أجرم مع ضعف اليد وقلة العدد أخرى بالهلاك»^(٦). قوله: ﴿كُلُّ كَذَّبَ الرُّسُلِ﴾؛ أي: كل من هذه الأمم وهؤلاء القرون كذب رسوله، ومن كذب رسولاً فكأنما كذب جميع الرسول^(٧). ﴿فَحَقَّقَ وَعِيدِ﴾؛ أي: «فحق عليهم وعيد الله وعقوبته»^(٨)، وفي هذا ترهيب من الله تعالى لمشركي قريش، «فلمستم أيها المكذبون لمحمد ﷺ خيراً منهم، ولا رسلهم أكرم على الله من رسولكم، فاحذروا جرمهم؛ لئلا يصيبكم ما أصابهم»^(٩).

٥- التنبيه بالنشأة الأولى على النشأة الثانية؛ قال تعالى: ﴿أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ إشارة إلى دليل عقلي آخر، حيث عاد سبحانه في هذه الآية، «إلى تقرير المعاد بقوله: ﴿أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾، يقال لكل من عجز عن شيء: عيي به، وعيي فلان بهذا الأمر. ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَعْى بِخَلْقِهِنَّ﴾، قال ابن عباس: يريد: أفعجنا. وكذلك قال مقاتل. وليس المراد بالإعياء في هذه الآية التعب، كما يظنه من لم يعرف تفسير القرآن، بل هذا المعنى هو الذي نفاه سبحانه عن نفسه في آخر السورة

-
- (١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ٣٩٧/٧.
(٢) سورة: الأعراف، الآية: ٩١.
(٣) فتح القدير، للشوكاني، ٧٤/٥.
(٤) فتح القدير، للشوكاني، ٧٤/٥.
(٥) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ٢٥٦/٧.
(٦) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ١٤٦/١٦.
(٧) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ٣٩٧/٧.
(٨) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لعبد الرحمن السعدي، ٨٠٤/١.
(٩) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

بقوله: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾^(١)،^(٢).

فقوله تعالى: ﴿أَفَعِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾: «أي: أفعجزنا ابتداء الخلق حتى هم في شك من الإعادة» وفي هذا^(٣) «توقيف للكفار وتوبيخ وإقامة الحجة الواضحة عليهم، وذلك أن جوابهم على هذا التوقيف هو لم يقع عي»^(٤). «والمراد بالخلق الأول: إنشاء الإنسان من نطفة على التدريج المعلوم»^(٥)، وقيل غير ذلك^(٦)، «يؤيد هذا الوجه هو أن الله تعالى قال بعد هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾^(٧)، فهو كالأستدلال بخلق الإنسان»^(٨). «وجملة قوله: ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ عطف على مقدر، يدل عليه ما قبله، كأنه قيل: هم غير منكرين لقدرتنا على الخلق الأول، بل هم في خلط وشبهة في خلق مستأنف لما فيه من مخالفة العادة»^(٩)، «وهذا قياس فاسد، كما لا يخفى»^(١٠).

المطلب الثالث: دلائل كمال قدرة الله تعالى وعلمه في الأنفس خلقاً ومالاً،

من الآيات: ١٦ إلى ٣٨

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ، وَحَنُّ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ جَبَلٍ أَلْوَيْدٍ﴾^(١٦) إِذْ يَتَلَفَّى الْمَتَلَفِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ^(١٧) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ^(١٨)

(١) سورة: ق، من الآية: ٣٨.

(٢) بدائع التفسير، لابن القيم، ٢١ / ٣.

(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ٢٥٦ / ٧.

(٤) المحرر الوجيز، لابن عطية ١٥٩ / ٥.

(٥) «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز» لابن عطية، ١٥٩ / ٥.

وانظر: «مفاتيح الغيب» للفخر الرازي، ١٦٢ / ٢٨، «تفسير التحرير والتنوير» لابن عاشور، ٢٩٧ / ٢٥.

(٦) يحتمل أن يكون المراد بالخلق الأول هو خلق السماوات. انظر تفصيل ذلك في: «مفاتيح الغيب» للفخر الرازي، ١٦٢ / ٢٨. وقال الحسن: «الخلق الأول: آدم عليه السلام». انظر: «المحرر الوجيز» لابن عطية، ١٥٩ / ٥.

(٧) سورة: ق، من الآية: ١٦.

(٨) مفاتيح الغيب، للفخر الرازي، ١٦٢ / ٢٨.

(٩) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود، ١٢٥ / ٦.

(١٠) روح البيان، لإسماعيل حقي، ١١١ / ٩.

وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾
وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ
أَيُّومَ حَلِيدٍ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عِتِيدٍ ﴿٢٣﴾ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ كُلٌّ كِفَارٍ عِنْدِ ﴿٢٤﴾ مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ
مُعْتَدٍ مَرِيْبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ * قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا
مَا أَطَعْتُهُ، وَلَكِن كَانِ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا
يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلْمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴿٣٠﴾
وَأَرْزَقْتِ الْجَنَّةَ لِامْتِنِينَ عِزِّ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَذَا مَا نُوعِدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ
بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ
﴿٣٥﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ ﴿٣٦﴾
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴿٣٨﴾ .

أولاً: مناسبة المطلب الثالث للمطلب الثاني:

ورد في ختام المطلب الثاني قوله تعالى: ﴿أَفَعِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ
جَدِيدٍ﴾ ، وابتدأ هذا المطلب بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْنَاهُ مَا نُوسُوا بِهِ نَفْسَهُ﴾ ،
يقول ابن عاشور في ذلك: «هذا تفصيل لبعض الخلق الأول بذكر خلق الإنسان، وهو
أهم في هذا المقام للتنبيه على أنه المراد من الخلق الأول، وليبني عليه: ﴿وَنَعَلْنَاهُ مَا نُوسُوا
بِهِ نَفْسَهُ﴾ الذي هو تتميم لإحاطة صفة العلم في قوله: ﴿قَدْ عَلَّمْنَا مَا نَفَعُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ ،
ولينتقل منه الإنذار بإحصاء أعمال الناس عليها، وهو ما استرسل في وصفه من قوله:
﴿إِذْ يُلْقَى الْمُتَلَقِينَ﴾ الخ»^(١).

كان المطلب الثاني في الاستدلال على البعث بدلائل الآفاق المتضمن برهاني العلم
والقدرة، ثم افتتح المطلب الثالث ببيان خلق الإنسان الذي يتضمن برهاني القدرة
والعلم، ثم أفرد الحديث عن برهان الحكمة الذي يقتضي البعث والجزاء، وما يتفرع

(١) تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور ٢٥/٢٩٩.

عليه من الأحوال والأهوال، فقال سبحانه: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ...﴾^(١)

في المطلب الثاني أجمل - سبحانه - في قوله: ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّيْسِ﴾ إلى قوله: ﴿فَتَقَى وَعَبِيدٌ﴾، فالوعيد الذي حق عليهم هو الاستئصال في الدنيا، وهو مضمون قوله - في هذا المطلب - : ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾^(٢).

جاء في هذا المطلب قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ تكملة لما وصف - في المطلب الثاني - من خلق السموات في قوله: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾ إلى قوله: ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾؛ ليتوصل به إلى قوله: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾^(٣).

ثانياً: دلائل البعث في الأنفس:

١- لفت أنظارهم إلى عظمة خلق الله للإنسان: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُمَّا نُوسُوسٌ بِهِ نَفْسُهُ، وَحَنَّ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ جَبَلٍ أَلْوَيْدٍ﴾^(٤) إِذْ يَتَلَفَّى الْمَتَلَفِيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ «على ما هو من أعظم آيات قدرته وشواهد ربوبيته وأدلة المعاد، وهو خلق الإنسان، فإنه من أعظم الأدلة على التوحيد والمعاد، وأي دليل أوضح من تركيب هذه الصورة الأدمية بأعضائها وقواها وصفاتها وما فيها من اللحم والعظم والعروق والأعصاب والرباطات والمنافذ والآلات والعلوم والإرادات والصناعات... كل ذلك من نطفة ماء، فلو أنصف العبد ربه لاكتفى بفكره في نفسه، واستدل بوجوده على جميع ما أخبرت به الرسل عن الله وأسمائه وصفاته»^(٤). ثم أخبر سبحانه عن إحاطة علمه به، فقال: ﴿وَنَعَلَهُمَّا نُوسُوسٌ بِهِ نَفْسُهُ، وَحَنَّ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ جَبَلٍ أَلْوَيْدٍ﴾، أي: «يعلم-

(١) انظر: مفاتيح الغيب، للفخر الرازي، بتصرف، ١٦/٢٨.

(٢) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود، ١٢٦/٦.

(٣) تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور، ٣٢٢/٢٥، انظر: نظم الدرر، للبقاعي، ٤٣٤/١٨.

(٤) بدائع التفسير، لابن القيم، ٢١/٣.

سبحانه - ما توسوس به نفوس بني آدم من الخير والشر»^(١). «وفائدة الإخبار بأن الله يعلم ما توسوس به نفس كل إنسان التنبيه على سعة علم الله تعالى بأحوالهم كلها، فإذا كان يعلم حديث النفس فلا عجب أن يعلم ما تنقص الأرض منهم»^(٢). ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ ، حبل الوريد: هو الأوداج، وهما العرقان العظيمان المحيطان بالحلقوم، يسمى الوريد، ويسمى الودج»^(٣).

وقد اختلف العلماء في المراد بـ﴿وَمَنْ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ فذهب فريق من العلماء إلى أنه الله عز وجل، فيؤول على معنى العلم أو القدرة^(٤)، وذهب آخرون إلى أنهم الملائكة، وهو الأولى^(٥). قال ابن كثير: «مَلَائِكَتُهُ تَعَالَى أَقْرَبُ إِلَى الْإِنْسَانِ مِنْ حَبْلِ وَرِيدِهِ إِلَيْهِ، وَمَنْ تَأَوَّلَهُ عَلَى الْعِلْمِ فَإِنَّمَا فَرَّ لئَلَّا يَلْزَمَ حُلُولٌ أَوْ اتِّحَادٌ وَهُمَا مَنْفِيَّانِ بِالْإِجْمَاعِ، تَعَالَى اللَّهُ وَتَقَدَّسَ، وَلَكِنَّ اللَّفْظَ لَا يَفْتَضِيهِ فَإِنَّهُ لَمْ يَقُلْ: وَأَنَا أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ وَإِنَّمَا قَالَ: ﴿وَمَنْ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ ، كَمَا قَالَ فِي الْمُحْتَضِرِ: ﴿وَمَنْ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾^(٦)؛ يعني: ملائكته». ولهذا قال تعالى هاهنا: ﴿إِذْ يَنْفَقُ الْمَتَلَقِيَانِ﴾؛ يعني: الملكين الذين يكتبان عمل الإنسان، ﴿إِذْ يَنْفَقُ الْمَتَلَقِيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾؛ أي: مُتَرَصِّدٌ، ﴿مَا يَلْفُظُ﴾؛ أي: ابْنُ آدَمَ مِنْ قَوْلِ أَيِّ مَا يَتَكَلَّمُ بِكَلِمَةٍ، ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾؛ أي: إِلَّا وَلَهَا مَنْ يَرِاقِبُهَا مُعْتَدٍ لِذَلِكَ يَكْتُبُهَا لَا يَتْرُكُ كَلِمَةً وَلَا حَرَكَةً كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَنِينِينَ ﴿١١﴾ يَعْمُرُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾^(٧)،^(٨).

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ٣٩٨/٧.

(٢) تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور، ٢٩٩/٢٥.

(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن عثيمين، سورة: ق، ص: ٨٩.

(٤) انظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري، ١١/٤١٥. إرشاد العقل السليم، لأبي السعود، ١٢٥/٦.

(٥) مفاتيح الغيب، للفخر الرازي، ٢٨/١٦٢. تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور، ٣٠٠/٢٥.

(٦) انظر تفصيل ذلك: التفسير الكامل، لابن تيمية، ٢٨٧/٦.

(٧) سورة: الواقعة، الآية: ٨٥.

(٨) سورة: الانفطار، الآية: ١٠-١٢.

(٩) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ٣٩٨/٧، وانظر: التفسير الكامل، لابن تيمية، ٢٨٧/٦.

٢- التنبيه بالقيامة الصغرى:

قال تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾. ثم تتوالى الآيات متضمنة الأصل الثالث التي جاءت براهين المعاد في القرآن مبنية عليه، ألا وهو كمال حكمته عز وجل من خلق هذا الإنسان، فلم يخلقه عبثاً، بل لغاية وحكمة، وهو الابتلاء بالتكاليف. ومن ثم كان لا بد من حياة أخرى بعد الموت؛ لينال كل جزاء عمله؛ قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾^(١).

يقول الأكويسي: «تضمنت الآية الدليل على وقوع البعث، حيث إن الحكمة تقتضي الأمر بالمحاسن، والنهي عن القبائح، والتكليف لا يتحقق إلا بمجازة، وهي قد لا تكون في الدنيا فتكون في الآخرة»^(٢).

فجاءت الآيات التي بين أيدينا محذرة للمشركين، حيث يخبر الله عز وجل عن القيامة الصغرى، وهي سكرة الموت؛ قال تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾. والمراد بـ ﴿سَكْرَةُ الْمَوْتِ﴾: «شدته وغمرته التي تغشى الإنسان وتغلب على عقله»^(٣). ﴿بِالْحَقِّ﴾ «وجهان من التأويل:

أحدهما: بالحق من أمر الآخرة، فتبينه الإنسان حتى تثبته وعرفه.

والثاني: وجاءت سكرة الموت بحقيقة الموت»^(٤). ولا مانع من الجمع بين القولين؛ فإن المعنى يحتملهما، «فهي تأتي بالحق، وتأتي أيضاً بحق اليقين»^(٥)، فإن الإنسان عند الموت يشاهد ما تُوعده به، وما وُعد به؛ لأن إن كان مؤمناً بُشِّرَ بالجنة، وإن كان كافراً

(١) سورة: الجاثية، الآية: ٢١.

(٢) روح المعاني، للأكويسي، ٢٥٦/١٦.

(٣) فتح القدير، للشوكاني، ٨٠/٥.

(٤) جامع البيان، لابن جرير الطبري، ٤٢٧/٢١.

(٥) درجات اليقين ثلاث: علم اليقين: ما علمه بالسمع، والخبر، والقياس، والنظر، وعين اليقين: ما شاهده وعينه بالبصر، وحق اليقين: ما باشره، وذاقه، وعرفه بالاعتبار. مجموع الفتاوى، لابن تيمية ٦٤٥/١٠.

بُشِّرَ بالنار»^(١). وقوله: ﴿ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾؛ «أي: هذا هو الذي كنت تفر منه قد جاءك، فلا محيد، ولا مناص، ولا فكاك، ولا خلاص. وقد عبرَ عن وقوعِ كُلِّ مَنْهَا بصيغةِ الماضي إيداناً بتحقيقها وغايةِ اقترابها»^(٢). قصدًا لإدخال الروح في نفوس المشركين، كما استفيد من قوله: ﴿ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾.

وللمفسرين أقوال في المخاطب بقوله: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾، هل هو الإنسان من حيث هو أو الكافر؟ «الصحيح: أن المخاطب بذلك الإنسان من حيث هو»^(٣)، «فإن النفرة عنه - الموت - شاملة لكل فرد من أفرادهِ طبعاً»^(٤). فعن عبادة بن الصامت، عن النبي ﷺ قال: «من أحب لقاء الله؛ أحب الله لقاءه»^(٥)، ومن كره لقاء الله؛ كرهه لقاءه». قالت عائشة - أو بعض أزواجه - : «إنا لنكره الموت»^(٦). قال: «ليس ذلك، ولكن المؤمن إذا حضره الموت بُشِّرَ برضوان الله وكرامته، فليس شيء أحب إليه مما أمامه، فأحب لقاء الله وأحب لقاءه، وإن الكافر إذا حضر بُشِّرَ بعذاب الله وعقوبته، فليس شيء أكره إليه مما أمامه، فكره لقاء الله وكره لقاءه»^(٧).

٣- مآل الخلق إلى القيامة الكبرى:

قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾^(٢٠)، «عطف على ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ

(١) تفسير القرآن، لابن عثيمين، سورة «ق»، ص: ٩٥، وانظر: تفسير النكت والعيون، للماوردي

٣٤٨/٥

(٢) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود، ١٢٦/٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ٣٩٩/٧.

(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ٣٩٩/٧.

(٥) المراد بـ «لقاء الله» هنا: المصير إلى الدار الآخرة، وطلب ما عند الله، وليس الغرض به الموت؛ لأن كلاً يكرهه، فمن ترك الدنيا وأبغضها أحب لقاء الله، ومن آثرها وركن إليها كره لقاء الله؛ لأنه إنما يصل إليه بالموت - فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني ١٦٥/٣.

(٦) وقول عائشة: والموت دون لقاء الله يبين أن الموت غير اللقاء، ولكنه معترض دون الغرض المطلوب، فيجب أن يصبر عليه، ويحتمل مشاقه حتى يصل إلى الفوز باللقاء «المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(٧) أخرجه البخاري - كتاب: الرقاق، باب: من أحب لقاء الله أحب لقاءه، ١٦٣/١٣ ح: ٦٥٠٧.

بِالْحَقِّ ﴿١﴾. والمراد بقوله: ﴿وَنُفِّخَ﴾: «هي النفخة الآخرة للبعث»^(٢)، وعبر عنه بالماضي لتحقق وقوعه»^(٣).

﴿فِي الصُّورِ﴾ وهو القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام للموت العام والبعث العام عند التكامل^(٤). وقد ورد بيان الصور عن النبي ﷺ؛ فقد جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: ما الصور؟ قال: «قرن ينفخ فيه»، وقال رسول الله ﷺ: «كيف أنعم؟ وصاحب القرن قد التقم القرن، واستمع الإذن متى يؤمر بالنفخ فينفخ»، فكأن ذلك ثقل على أصحاب النبي، فقال لهم: «قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا»^(٥).

﴿يَوْمَ الْوَعِيدِ﴾: هو يوم القيامة؛ أي: يوم إنجاز الوعيد الواقع في الدنيا؛ أي: يوم وقوع الوعيد على أنه عبارة عن العذاب الموعود، «وتخصيص الوعيد بالذكر على تقدير كون الخطاب للإنسان مطلقاً، مع أنه يوم الوعد أيضاً بالنسبة إليه للتحويل»^(٦)؛ لأن السياق أكثر تعلقاً بالكافرين وما توعدهم به»^(٧)؛ ولذلك بدء ببيان حال الكفرة»^(٨). قوله عز وجل: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مِّنَ النُّفُوسِ الْبِرَّةِ وَالْفَاجِرَةِ، كَمَا هُوَ الظَّاهِرُ»^(٩). ﴿مَعَهَا سَابِقٌ وَسَهِيدٌ﴾؛ أي: ملك يسوقه إلى المحشر، وملك يشهد عليه بأعماله هو.

وهو الظاهر من الآية الكريمة، وإن اختلفت كيفية السوق والشهادة حسب اختلاف النفوس عملاً^(١٠)، ويقال لهذا الإنسان: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾. قال

(١) تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور ٣٠٦/٢٥.

(٢) فتح القدير، للشوكاني، ٨١/٥.

(٣) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٤) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للبقاعي، ٤٢٣/١٨.

(٥) أخرجه الترمذي في الجامع الكبير، باب ما جاء في شأن الصور ٧/١٤٠ ح ٢٤٧٨، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن.

(٦) روح المعاني، للأكوسي، ١٨٣/٢٥.

(٧) استدرارك ما فات من بلاغة الآيات المتشابهات، د. سعد عبد العظيم محمد، ص ٨٤٢.

(٨) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود، ١٢٧/٦.

(٩) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ٤٠١/٧.

(١٠) روح المعاني، للأكوسي، ١٨٣/٢٥.

أكثر المفسرين: المراد به جميع الخلق برهم وفاجرهم، واختار هذا ابن جرير^(١)، وقيل غير ذلك^(٢). - ويعلل ابن جرير ترجيحه فيقول: وَأَوْلَى الْأَقْوَالِ فِي ذَلِكَ عِنْدِي بِالصَّوَابِ قَوْلُ مَنْ قَالَ: عُنِيَ بِهَا الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ، لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ اتَّبَعَ هَذِهِ الْآيَاتِ قَوْلَهُ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْنَاهُ مَأْسُورًا ۖ وَإِنَّا لَنَافِلُونَ﴾، وَالْإِنْسَانُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ بِمَعْنَى: النَّاسُ كُلُّهُمْ، غَيْرُ مَخْصُوصٍ مِنْهُمْ بَعْضٌ دُونَ بَعْضٍ... وَقَوْلُهُ: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾، يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: يُقَالُ لَهُ: لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا الَّذِي عَايَنْتَ الْيَوْمَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مِنَ الْأَهْوَالِ وَالشَّدَائِدِ ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ﴾، يَقُولُ: فَجَلَيْنَا ذَلِكَ لَكَ، وَأَظْهَرْنَا لِعَيْنَيْكَ، حَتَّى رَأَيْتَهُ وَعَايَنْتَهُ، فَزَالَتْ الْغَفْلَةُ عَنْكَ^(٣).

- «ولما تسبب عن هذا الكشف الانكشاف التام؛ عبر عنه^(٤) عز وجل بقوله ﴿فَصْرَكَ أَلْيَوْمَ حَرِيدٌ﴾؛ «أي: قوى؛ لأن كل واحد يوم القيامة يكون مستبصرًا، حتى الكفار في الدنيا يكونون يوم القيامة على الاستقامة، لكن لا ينفعهم ذلك، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾^(٥)»^(٦).

قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَيْنِي﴾، «يقول تعالى مخبرًا عن الملك الموكل بعمل ابن آدم: أنه يشهد عليه يوم القيامة بما فعل»^(٧). وقال مجاهد: «هذا كلام الملك السائق، يقول: هذا ابن آدم الذي وكلتني به، قد أحضرتة»^(٨). «والتحقيق أن الآية

(١) فتح القدير، للشوكاني، ٧٦/٥. وانظر: جامع البيان، لابن جرير، ٤٣٣/٢١.
(٢) قيل: المشركون؛ لأنهم كانوا في غفلة من عواقب أمورهم، وقيل: الخطاب للنبي ﷺ؛ أي: لقد كنت يا محمد في غفلة من الرسالة. انظر: المرجع السابق.
(٣) جامع البيان، لابن جرير الطبري، ٤٣٣/٢١ باختصار.
(٤) نظم الدرر، للبقاعي، ٤٢٥/١٨.
(٥) سورة: السجدة، الآية: ١٢.
(٦) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ٤٠١/٧.
(٧) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ٤٠٢/٧.
(٨) المرجع السابق، نفس الصفحة.

تتضمن الأمرين: أي: هذا الشخص الذي وكلت به، وهذا عمله الذي أحصيته عليه»^(١)، فعند ذلك يحكم الله سبحانه وتعالى في الخليقة بالعدل.

٤- وعيد الكافرين بعذاب جهنم:

قال تعالى: ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ ﴾، «وهذا إما أن يكون خطاباً للسائق والشهيد، أو خطاباً للملك الموكل بعذابه، وإن كان واحداً، وهو مذهب معروف من مذاهب العرب في خطابها»^(٢)، «يخاطبون المفرد بالتثنية... والظاهر أنها مخاطبة مع السائق والشهيد، فالسائق أحضره إلى عَرْصَةِ الحساب، فلما أدى الشهيد عليه، أمرهما الله تعالى بإلقائه في نار جهنم وبئس المصير»^(٣). ثم ذكر صفات هذا الملقى، فذكر له ست صفات:

١- ﴿ كَفَّارٍ ﴾: «أي: كثير الكفر، والتكذيب بالحق»^(٤).

٢- ﴿ عَنِيدٍ ﴾: «معاند للحق، معارض له بالباطل، مع علمه بذلك»^(٥).

٣- ﴿ مُعْتَدٍ ﴾: «وهذا يعم منعه للخير الذي هو إحسان إلى نفسه من الطاعات والقرب إلى الله، والخير الذي هو إحسان إلى الناس، فليس فيه خير لنفسه ولا لبني جنسه، كما هو حال أكثر الخلق»^(٦).

٤- ﴿ مُعْتَدٍ ﴾: «معتمد على الناس بلسانه؛ بالبذاءة والفحش في المنطق، وببيده؛ بالسطوة والبطش ظلماً»^(٧).

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير ٤٠٢/٧.

(٢) بدائع التفسير، لابن القيم ٢٣/٣.

(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير ٤٠٢/٧.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ص: ٤٠٣.

(٥) المرجع السابق، لابن كثير ٤٠٤/٧.

(٦) بدائع التفسير، لابن القيم ٢٣/٣.

(٧) جامع البيان، لابن جرير الطبري ٤٣٩/٢١.

٥- ﴿مُرِيبٌ﴾: «يعني: شك في وحدانية الله وقدرته على ما يشاء»^(١)، ويوقع الغير في الريب بإلقاء الشبهة»^(٢).

٦- ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾: «الذي أشرك بالله، فعبد معه آخر»^(٣).

قوله: ﴿فَأَلْفَيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾: «فألقياه في عذاب جهنم الشديد»^(٤)، بياناً لمكانه من جهنم التي بدأ الأمر بإلقائه»^(٥). قوله: ﴿قَالَ قَرِينُهُ﴾: «قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وغيرهم: هو الشيطان الذي وكل به: ﴿رَبَّنَا مَا أَطْعَمْتُهُ﴾»^(٦) أي: يقول عن الإنسان الذي قد وافى القيامة كافراً، يتبرأ منه شيطانه، فيقول: ﴿رَبَّنَا مَا أَطْعَمْتُهُ﴾^(٧) أي: ما أضللته، ولكن كان في ضلال بعيد ﴿أَيُّ بَلْ كَانَ هُوَ فِي نَفْسِهِ ضَالًّا قَابِلًا لِلْبَاطِلِ مُعَانِدًا لِلْحَقِّ﴾^(٨). وقيل: «إن قرينه الملك الذي كان يكتب سيئاته، وإن الكافر يقول: رب، إنه أعجلني، فيجيبه بهذا، كذا قال مقاتل وسعيد بن جبير، والأول أولى، وبه قال الجمهور»^(٩). ثم يخبر الله عن القول الفصل وينهي كل قول، فيقول: ﴿قَالَ لَا تَخْصِمُوا لَدَيَّ﴾، «يقول تعالى ذكره: قال الله لهؤلاء المشركين الذين وصف صفتهم وصفة قرنائهم من الشياطين: ﴿قَالَ لَا تَخْصِمُوا لَدَيَّ﴾ اليوم ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ﴾ في الدنيا قبل اختصامكم هذا، ﴿بِالْوَعِيدِ﴾ لمن كفر بي وعصاني، وخالف أمري ونهبي في كتبي وعلى ألسن رُسلي»^(١٠).

قوله: ﴿مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ﴾، قيل: «ما يُغَيِّرُ الْقَوْلَ الَّذِي قَلْتَهُ لَكُمْ فِي الدُّنْيَا، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾، ولا قضائي بالذي قضيته فيهم فيها»^(١١).

(١) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(٢) مفاتيح الغيب، للفخر الرازي ١٦٦/٢٨.

(٣) جامع البيان، لابن جرير الطبري ٩/٢١.

(٤) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(٥) في ظلال القرآن، لسيد قطب، ٣٣٦٥/٦، وينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، ٣١٢/٢٥.

(٦) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ٤٠٣/٧.

(٧) فتح القدير، للشوكاني ٧٦/٥. وانظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري ٤٤٠/٢١.

(٨) جامع البيان، لابن جرير الطبري، ٤٤١/٢١.

(٩) انظر: المرجع السابق، ص: ٤٤٢.

«وقال مجاهد: «يعني: قد قضيت ما أنا قاضٍ»، وهذا أصح القولين»^(١): «فعلى القول الأولى يكون قوله: ﴿وَمَا أَنَا بِظَالِمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ من تمام قوله: ﴿مَا يَبْدُلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ في المعنى؛ أي: ما قلته ووعدت به لا بد من فعله، ومع هذا فهو عدل لا ظلم فيه ولا جور. وعلى الثاني يكون قد وصف نفسه بأمرين:

أحدهما: أن كمال علمه واطلاعه يمنع من تبديل القول بين يديه وترويح الباطل عليه.

والثاني: أن كمال عدله وغناه يمنع من ظلمه لعبيده»^(٢).

«وقوله: ﴿وَمَا أَنَا بِظَالِمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾؛ أي: لست أعذب أحداً بذنب أحد، ولكن لا أعذب أحداً إلا بذنبيه، بعد قيام الحجة عليه»^(٣). «ولما كان هذا التقاؤل مما يهول أمره ويقلع القلوب ذكره، صور وقته بصورة تزيد في ذلك الهول، وينقطع دون وصفها القول، فقال عز وجل: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ﴾^(٤)، «وهذا القول لجهنم مقصود به ترويح المدفوعين إلى جهنم أن لا يطمعوا في أن كثرتهم يضيق بها سعة جهنم، فيطمع بعضهم أن يكون ممن لا يوجد له مكان فيها، فحكاه الله في القرآن عبرة لمن يسمعه من المشركين وتعليماً لأهل القرآن المؤمنين»^(٥). وقوله: ﴿هَلْ أَمْتَلَأْتِ﴾ «لما سبق من وعده إياها بأنه يملؤها من الجنة والناس أجمعين»^(٦). والسؤال سؤال «تقريب وتوقيف، لا سؤال استفهام حقيقة؛ لأنه تعالى عالم بأحوال جهنم»^(٧)، «فهو سبحانه يأمر بمن يأمر به إليها، ويلقي وهي تقول: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾؛ أي: هل بقي شيء تزيدونني؟ هذا هو الظاهر من السياق، وعليه تدل الأحاديث»^(٨)، فعن أنس

(١) انظر: جامع البيان، لابن جرير، ٤٤١/٢١، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ٤٠٣/٧.

(٢) بدائع التفسير، لابن القيم، ٢٤/٣.

(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ٤٠٣/٧.

(٤) نظم الدرر، للبقاعي ٤٣٠/١٨.

(٥) التحرير والتنوير، لابن عاشور ٣١٧/٢٥.

(٦) جامع البيان، لابن جرير الطبري ٤٤٣/٢١.

(٧) البحر المحیط، لابن حيان ١٢٦/٨.

(٨) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير ٤٠٣/٧، وهذا هو اختيار ابن جرير الطبري انظر: جامع

البيان ٤٤٦/٢١، و«نظم الدرر» ٤٣١/١٨، و«المحرر الوجيز» لابن عطية ١٦٥/٥، و«التفسير

الكامل» لابن تيمية ٩٦/٦، و«بدائع التفسير» لابن قيم الجوزية ٢٥/٣.

بن مالك رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يلقى في النار، وتقول: هل من مزيد؟ حتى يضع قدمه^(١) فتقول: قط قط^(٢)»،^(٦)، وقيل: «أي: قد امتلأت ولم يبق في موضع لم يمتلي»^(٤).

٥: وعد الله تعالى المؤمنين بنعيم الآخرة: قال تعالى: ﴿وَأَزْلَفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾^(٣١) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ^(٣٢) مَن خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْعَلِيمَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ^(٣٣) أَدْخُلُوهَا بِسَلْمٍ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُلُودِ^(٣٤) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ

يقول ابن عاشور: «عطف ﴿وَأَزْلَفَتِ﴾ على ﴿نَقُولُ لِجَهَنَّمَ﴾، فالتقدير: يوم أزلفت الجنة للمتقين، وهو رجوع إلى مقابل حالة الضالين يوم ينفخ في الصور، فهذه الجملة متصلة في المعنى بجملة: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾^(٥). قوله: ﴿وَأَزْلَفَتِ﴾: أدنيت وقربت^(٦)، ﴿الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾؛ «أي: العريقين في هذا الوصف»^(٧)، ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾: تأكيد وبيان أن هذا التقدير هو في المسافة^(٨)، «فلا يكلفون مشقة السير إليها، بل هي التي تجيء»^(٩)، وقيل: المعنى: «أنها زينت قلوبهم في الدنيا بالترغيب والترهيب، فصارت قريبة من قلوبهم، والأول أولى»^(١٠). وقوله: ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ﴾: إشارة إلى الجنة^(١١)، «وعبر بالمضارع حكاية للحال الماضية، وعبر عن الإزلاف بالماضي تحقيقاً لأمره وتصويراً لحضوره الآن، ليكون المضارع من الوعد في أحكم مواضعه، وأبهم الأمر؛ لأنه أكثر تشويقاً، والتعيين بعد الإبهام أذ، فلذلك قال بياناً للمتقين»^(١٢): ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ

(١) يقول ابن حجر العسقلاني: «واختلف في المراد بالقدم؛ فطريق السلف في هذا وغيره مشهورة، وهو: أن تمر كما جاءت، ولا يتعرض لتأويله، بل نعتقد استحالة ما يوهم النقص على الله». انظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ٥٧٣/٩.
(٢) «قط قط»: أي: حسبي حسبي. انظر: المرجع السابق، نفس الصفحة.
(٣) أخرجه البخاري، كتاب: التفسير، باب: سورة «ق»، ٥٧٢/٩، ح: ٤٨٤٨.
(٤) فتح القدير، للشوكاني ٧٨/٥، وانظر: «جامع البيان» لابن جرير الطبري ٤٤٣/٢١.
(٥) تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور ٣١٩/٢٥، وانظر: إرشاد العقل السليم، لأبي السعود ١٢٩/٦.
(٦) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير ٤٠٦/٧.
(٧) نظم الدرر، للبقاعي ٤٣١/١٨.
(٨) روح المعاني، للالكوسي ٨٩/٢٥.
(٩) في ظلال القرآن، لسيد قطب ٣٣٦٥/٢٦، وانظر: «نظم الدرر» للبقاعي ٤٣١/١٨.
(١٠) فتح القدير، للشوكاني ٧٨/٥.
(١١) روح المعاني، للالكوسي ١٨٩/٢٥.
(١٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٤٣٢/١٨.

حَفِيطٍ ﴿١﴾: «أي: رجاء تائب مقلع، ﴿حَفِيطٍ﴾: أي: يحفظ العهد، فلا ينقضه ولا ينكثه، ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾: أي: من خاف الله في سره، حيث لا يراه أحد إلا الله، ﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾: أي: ولقي الله يوم القيامة بقلب سليم منيب إليه خاضع لديه، ﴿أَدْخُلُوهَا﴾: أي: الجنة، ﴿سَلِمِ﴾: قال قتادة: سلموا من عذاب الله، وسلم عليهم ملائكة الله، وقوله: ﴿ذَلِكَ يَوْمَ الْخُلُودِ﴾: أي: يخلدون في الجنة، فلا يموتون أبداً، ولا يظعنون أبداً، ولا يبيغون عنها حولاً، وقوله: ﴿هُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا﴾: أي: مهما اختاروا وجدوا؛ من أي أصناف الملاذ طلبوا؛ أحضر لهم»^(١). ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾: هو «النظر إلى وجه الله الكريم»^(٢)؛ فعن صهيب الرومي، عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، قال: يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل»^(٣).

«وجاء ترتيب الآيات السابقة في منتهى الدقة، فبدأت بذكر إكرامهم بقوله: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾، ثم يذكر أن الجنة جزأؤهم الذي وعدوا به، فهي حق لهم، ثم أوّمت إلى أن ذلك لأجل أعمالهم بقوله: ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيطٍ مِّنْ خَشْيِ الرَّحْمَنِ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ ثم ذكرت المبالغة في إكرامهم بعد ذلك كله بقوله: ﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾، ثم طمأنهم بأن ذلك نعيم خالد، وزيد في إكرامهم بأن لهم ما يشاءون ما لم يروه حين الدخول، وبأن الله وعدهم بالمزيد من لدنه»^(٤).

٦- العبرة والعظة بما حل بالأمم الكاذبة: قال الله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾.

الآيات هنا: «انتقال من الاستدلال إلى التهديد، وهو معطوف على ما قبله، وهذا العطف

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير ٧/٤٠٦.

(٢) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(٣) أخرجه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم ١/١١٢ ح: ١٨١.

(٤) تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور ٢٥/٣٢١، ٣٢٢، وانظر: «التفسير الكبير» للرازي

١٨٠/٢٨

انتقال إلى الموعدة بما حل بالأمم المكذبة بعد الاستدلال على إمكان البعث بقوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضَ مِنْهُمْ﴾، وما فرغ من قوله: ﴿أَفَعَيَّبْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾^(١) قوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ﴾؛ «أي: كثيراً أهلكتنا قبل قومك ﴿مِنْ قَرْنٍ﴾ قوماً مقترنين في زمن واحد»^(٢)، ﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾؛ أي: قوة، كما قيل، أو أخذاً شديداً في كل شيء، كعاد وقوم فرعون، ﴿فَنَنْبُؤُا^(٣) فِي آلِ لَيْدٍ﴾: ساروا في الأرض، وطوفوا فيها حذار الموت»^(٤)، «والفاء للدلالة على أن شدة بطشهم أقدرتهم على التنقيب»^(٥).

وقوله: ﴿هَلْ مِنْ مَّحِيصٍ﴾^(٦): «توقيف وتقرير»^(٧)؛ «أي: هل من مفر كان لهم من قضاء الله وقدره؟ وهل نفعهم ما جمعوه، ورد عنهم عذاب الله إذ جاءهم لما كذبوا الرسل؟ فأنتم أيضاً لا مفر لكم ولا محيد ولا مناص ولا محيص»^(٨). ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾: «يعني: إهلاك من مضى»^(٩)، «ويجوز أن يكون إلى جميع ما تقدم من استدلال وتهديد وتحذير من يوم الجزاء»^(١٠). ﴿لَذَكَّرَى﴾؛ «أي: لعبرة، ﴿لَمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾؛ أي: لب يعي به، وقال مجاهد: «عقل»، ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾؛ أي: استمع الكلام فوعاه، وتعقله بقلبه وتفهمه بلبه»^(١١). «وقد جيء بهذه الجملة الحالية للإشارة إلى اقتران مضمونها بمضمون عاملها، بحيث يكون صاحب الحال ملقياً سمعه مشاهداً، وهذه حالة المؤمن، ففي الكلام تنويه بشأن المؤمنين وتعريض بالمشركين بأنهم بعداء عن

(١) نظم الدرر، للبلقاعي ٤٣٥/١٨.

(٢) قال الجمهور: مئة سنة. وقيل غير ذلك. «المحرر الوجيز» لابن عطية ١٦٧/٥.

(٣) النقب في الحائط والجلد كالنقب في الخشب...، ونقب القوم: ساروا. المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني ص ٥٥٧.

(٤) روح المعاني، للأكوسي ١٩١/٢٥.

(٥) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود ١٣٠/٦.

(٦) المحيص: المعدل، موضع الحيص، وهو: الروغان والحياد. المحرر الوجيز، لابن عطية ١٦٧/٥.

(٧) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(٨) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير ٤٠٩/٧.

(٩) «المحرر الوجيز» لابن عطية ١٦٧/٥.

(١٠) «تفسير التحرير والتنوير» لابن عاشور ٣٢٣/٢٥.

(١١) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير ٤٠٩/٧.

الانتفاع بالذكريات والعبر»^(١).

٧- كمال قدرة الله في خلقه: قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾^(٢).

«أكد هذا الخبر بثلاثة مؤكدات: القسم، واللام، وقد؛ لأن تقدير الآية: والله لقد خلقنا»^(٣)، «تنبيهاً لمنكري البعث وتبكيها، وافتتحه بحرف التوقع - قد-؛ لأن من ذكر بخلق شيء -، توقع الإخبار عما هو أكبر منه-. يقول ابن كثير: «فيه تقرير المعاد؛ لأن من قدر على خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن، قادر على أن يحيي الموتى بطريق أولى»^(٤).

- قوله تعالى: ﴿سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾: «الأرض في يومين، ومنافعها في يومين، والسموات في يومين، ولو شاء لكان ذلك في أقل من لمح البصر، ولكنه سن لنا التآني بذلك، أو خلقها في ستة أيام لكون لكل شيء عنده أجلاً»^(٥). «والواو في ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ واو الحال؛ لأن لمعنى الحال هنا موقعاً عظيماً، من تقييد ذلك الخلق العظيم في تلك المدة القصيرة بأنه لا ينصب خالقه؛ لأن الغرض من معظم هذه السورة بيان إمكان البعث؛ إذ أحاله المشركون بما يرجع إلى ضيق القدرة الإلهية عن إيقاعه، فكانت هذه الآيات كلها مشتملة على إبراز

(١) «تفسير التحرير والتنوير» لابن عاشور ٢٥ / ٣٢٤.

(٢) جاء في سبب نزول هذه الآية رواية ضعيفة، وقد أعرضت عن ذكرها، وهي: ما أخرجه الحاكم في «مستدركه»: عن أبي سعد البقال، عن عكرمة، عن ابن عباس: أن اليهود أتت النبي ﷺ، فسألت عن خلق السموات والأرض، فقال: «خلق الله الأرض يوم الأحد». قالوا: قد أصبت، لو تمت: ثم استراح. فغضب رسول الله ﷺ غضباً شديداً، فنزلت: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ...﴾. قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه». انظر: «المستدرک علی الصحیحین» ٢ / ٥٩٢ ح: ٣٩٩٧. - قال الذهبي في «التلخيص»: «أبو سعيد البقال؛ قال ابن معين: لا يكتب حديثه». انظر: تعليق الذهبي على هامش «المستدرک علی الصحیحین» ٢ / ٥٩٢. قال ابن رجب: «ومن قال أنه على شرط الشيخين فقد أخطأ». انظر: «فتح الباري في شرح صحيح البخاري» لابن رجب الحنبلي ٣ / ٤٠٥. قال الألباني: «منكر». انظر: «سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة» ١٢ / ٩٤٥ ح: ٥٩٧٣.

(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن عثيمين، سورة: ق، ص: ١٠٨.

(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ٧ / ٤٠٩.

(٥) فتح القدير، للشوكاني، ٢ / ٢١٩، سورة: الأعراف، الآية: ٥٤.

معنى سعة القدرة الإلهية^(١). «وحقيقة المس: اللمس؛ أي: وضع اليد على شيء وضعا غير شديد، بخلاف الدفع والطم، فعبر عن نفي أقل الإصابة بنفي المس لنفي أضعف أحوال الإصابة»^(٢). وهذا يوحي «ببسر الخلق والإنشاء في هذا الخلق الهائل، فكيف بإحياء الموتى، وهو بالقياس إلى السموات والأرض أمر هين صغير؟»^(٣).

المطلب الرابع: تسليية الرسول ﷺ بما يعينه على أداء الرسالة

من الآيات: من ٣٩ إلى ٤٥.

﴿فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾
وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ الشُّجُورِ ﴿٤٠﴾ وَاسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ
يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ مُحْيِيَةٌ وَنُؤْتِيكَ الْوَيْلَ وَاللَّيْلَ الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ
تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ
بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾

أولاً: مناسبة الخاتمة للمطلب الثالث: - «لما دل سبحانه في المطلب الثالث على شمول العلم وإحاطة القدرة، وكشف فيهما الأمر أتم كشف» جاءت الخاتمة لبيان «علم الحبيب القادر بما يفعل العدو أعظم نذارة للعدو وبشارة للولي، سبب عن ذلك قوله: ﴿فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾»^(٤).

ثانياً: الوسائل المعينة للرسول ﷺ على أداء الرسالة:

١- الصبر على الأذى: قوله تعالى: ﴿فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾: هذه تسليية للنبي ﷺ؛ وأمر له بالصبر على ما يقوله المشركون، «من التكذيب بما أخبرتهم من البعث والرسالة، وقد جمع ذلك كله الموصول وهو: ﴿مَا يَقُولُونَ﴾»^(٥).

(١) تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور ٢٥/٣٢٥.

(٢) تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور، ٢٥/٣٢٥-٣٢٦.

(٣) في ظلال القرآن، لسيد قطب ٢٦/٣٣٦٦.

(٤) نظم الدرر، للبقاعي ١٨/٤٣٨ بتصرف.

(٥) التحرير والتنوير، لابن عاشور، ٢٥/٣٢٧.

وقوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾: «أمر له ﷺ بالتسبيح بعد أمره له بالصبر على أذى الكفار، فيه دليل على أن التسبيح يعينه الله به على الصبر بالمأمور به»^(١). والمراد بالتسبيح - كما ذهب إلى ذلك أكثر العلماء^(٢) -: الصلاة، قال ابن عطية: «﴿وَسَبِّحْ﴾ معناه: صلِّ، بإجماع من المتأولين»^(٣). والمراد بـ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾: الصبح، ﴿وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾: هي العصر. قاله قتادة^(٤)، «وقال ابن عباس: «هي العصر والظهر»^(٥). وروى عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: كنا عند النبي ﷺ، فنظر إلى القمر ليلة - يعني: البدر - فقال: «إنكم سترون ربكم، كما سترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا - ثم قرأ-: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾»^(٦)^(٧). قوله عز وجل: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ فيه أربعة أوجه^(٨): أحدها: أنه تسبيح الله تعالى قولاً من الليل. قاله أبو الأحوص. الثاني: أنها صلاة الليل. قاله مجاهد. الثالث: أنها ركعتا الفجر. الرابع: أنها صلاة العشاء الآخرة. قوله: ﴿وَأَدْبَرَ الْأَشْجُورِ﴾ فيه ثلاثة أوجه^(٩): «أحدها: أنه التسبيح في أدبار الصلوات. قاله أبو الأحوص. الثاني: أنها النوافل بعد المفروضات. قاله ابن زيد. الثالث: أنها ركعتان بعد المغرب. قاله علي رضي الله عنه وأبو هريرة رضي الله عنه»^(١٠).

(١) أضواء البيان، لمحمد الأمين الشنقيطي ٦٥٥/٧

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير ٤٠٩/٧، معالم التنزيل، للبغوي ٢٢٦/٤، التفسير الكبير، للفخر الرازي، ١٨٥/٢٨، تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور ٣٢٧/٢٥.

(٣) المحرر الوجيز، لابن عطية، ١٦٨/٥

(٤) انظر: التفسير العظيم، لابن كثير، ٤٠٩/٧.

(٥) المحرر الوجيز، لابن عطية، ١٦٨/٥.

(٦) سورة: طه، الآية: ١٣٠.

(٧) أخرجه البخاري، كتاب: مواقيت الصلاة، باب: أفضل صلاة العصر، ٢/٢٢١ ح: ٥٥٤.

(٨) انظر: تفسير النكت والعيون، للماوردي ٣٥٧/٥.

(٩) تفسير النكت والعيون، للماوردي ٣٥٧/٥.

(١٠) التحرير والتنوير، لابن عاشور ٣٢٩/٢٥.

٢: التبشير والإنذار:

وقوله - سبحانه-: ﴿وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾: «الأمر بالاستماع مفرع بالفاء التي فرع بها الأمر بالصبر على ما يقولون، فهو لاحق بتسليية النبي ﷺ. فلا يكون المسموع إلا من نوع ما فيه عناية به وعقوبة لمكذبيه». والمعنى: «استمع يا محمد صيحة يوم القيامة يوم ينادي المنادي بها منادياً من موضع قريب، «بحيث يصل النداء إلى كل فرد من أفراد أهل المحشر»^(١). قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ﴾: «وهي النفخة الثانية»^(٢)؛ «أي: البعث من القبور»^(٣). ﴿بِالْحَقِّ﴾: «بمعنى الصدق، وهو هنا الحشر وصف بالحق، إبطالاً لزعم المشركين أنه اختلاق»^(٤). ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾: «أي: يوم خروج أهل القبور من قبورهم»^(٥).

وقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِيهِ وَنُمِيتُهُ﴾: «أي: نحْيِي في الآخرة ونميت في الدنيا، لا يشاركنا في ذلك مشارك. ﴿وَالْيَنَّا الْمَصِيرُ﴾: فنجازي كل عامل بعمله»^(٦). قوله: ﴿ذَلِكَ حَشْرٌ﴾: «بعث وجمع وسوق»^(٧)، ﴿عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾: «أي: هين، وتقديم الجار والمجرور؛ لتخصيص اليسر به عز وجل، فإنه سبحانه العالم القادر لذاته الذي لا يشغله شأن عن شأن»^(٨).

يقول ابن عطية: قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ كلام معادل لقول الكفرة، ﴿ذَلِكَ رَجَعٌ بَعِيدٌ﴾^(٩).

(١) فتح القدير، للشوكاني ٥ / ٨١.

(٢) روح المعاني، للاكوسي ٢٥ / ١٩٤.

(٣) جامع البيان، لابن جرير الطبري ١١ / ٤٣٩.

(٤) تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور ٢٦ / ٣٣١.

(٥) جامع البيان، لابن جرير الطبري ١١ / ٤٣٩.

(٦) فتح القدير، للشوكاني ٥ / ٧٧.

(٧) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود ٦ / ١٣١.

(٨) روح المعاني، للاكوسي ٢٥ / ١٩٥.

(٩) سورة: ق، من الآية: ٣.

٣. إقامة الحجة:

قال تعالى «تسلياً للنبي ﷺ بتهديدهم على تكذيبهم بالعلم الذي هو أعظم التهديد»^(١)، فقال: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ أي: «نحن يا محمد أعلم بما يقول هؤلاء المشركون بالله من فريتهم على الله وتكذيبهم بآياته، وإنكارهم قدرة الله على البعث بعد الموت»^(٢)، «فلا يهيدنك ذلك، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنَّاكَ يَصْبِقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾^(٣) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١٨﴾ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿١٩﴾»^(٤). ثم بين الله تعالى مهمة نبيه ﷺ فقال: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾؛ أي: ولست بالذي تجبر هؤلاء على الهدى، وليس ذلك مما كلفت به^(٥)، إنما أنت مبلغ^(٦). ثم قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ أي: بلغ أنت رسالة ربك، فإنما يتذكر من يخاف الله ووعيده ويرجو وعده، كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾^(٧) (٨).

«فالتذكير بالقرآن عام، إلا أنه لما كان المنتفع به هو من يخاف وعيد الله، صار كأنه مختص به^(٩)». «وغيره إنما يقصد لإقامة الحجة عليه، ولا يؤسف عليه، ولا يتأثر بتكذيبه، بل يعتقد أنه عدم لا تضر عدواته ولا تنفع ولايته، وما أدى إلا نفسه، وكل من والاه في الدنيا والآخرة»^(١٠).

(١) نظم الدرر، للبقاعي ٤٤٢/١٨.

(٢) جامع البيان، لابن جرير الطبري، ٤٣٩/١.

(٣) سورة: الحجر، الآية: ٩٧-٩٩.

(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير ٤١٢/٧.

(٥) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير ٤١٢/٧.

(٦) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٧) سورة: الرعد، الآية: ٤٠.

(٨) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير ٤١٢/٧.

(٩) دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، للشنقيطي، ص ٢٢٣.

(١٠) نظم الدرر، للبقاعي ٤٤٣/١٨.

الخاتمة

وفي خاتمة هذا البحث أذكر أهم النتائج التي توصلت إليها :

١- القرآن الكريم: لا يزال غصاً طرياً للتأمل ، وقد قال الله تعالى: ﴿قَدْ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾؛ أي: «وسيع المعاني عظيمها، كثير الوجوه، كثير البركات، جزيل المبرات»^(١)، ومن هنا وجب علينا أن نتدبره ونعمل به .

٢- إن ألفاظ القرآن الكريم، تتصرف وفق بناء محكم بالتقديم تارة، والتأخير أخرى، إذ إنه لا يتقدم لفظ أو يتأخر إلا لموجب يقتضيه المقام، أو لمناسبة يكون اللفظ فيها أنسب من غيره، وكذلك لاختلاف المقاصد، فيكون اللفظ الأليق في مكانه، والأدل على معناه؛ ليؤدي أسرار المعنوية التي يقتضيها السياق في دقة وإحكام .

٣- المتأمل سورة ﴿قَدْ﴾ يدرك أن هذه الردود القاطعة والبراهين الساطعة، جاءت محكمة الألفاظ، واضحة المعاني، وهذه سمة في القرآن من جملة الفوارق بين كلام الله تعالى وكلام البشر .

٤- دلائل البعث في سورة ﴿قَدْ﴾ تجمع بين ما فطرت عليه النفوس من الإيمان وبين ما تقرره العقول السليمة، ومن عظمة هذه الأدلة أن الأمي يفهمها وتبهر في الوقت ذاته العالم .

٥- جاءت براهين المعاد متحققة في سورة ﴿قَدْ﴾، وهي: تقرير كمال علم الرب سبحانه وتعالى، وكمال قدرته، وكمال حكمته .

٦- عرضت سورة ﴿قَدْ﴾ قضية البعث بدلائل متنوعة متعددة، منها: النظر والتفكر في ملكوت السموات والأرض، الإحياء بعد الممات، لفت الأنظار إلى عظمة خلق الله للإنسان، الاستدلال على البعث بالنشأة الأولى، حكمة الله وعدله، يقتضيان البعث والجزاء، العظة والعبرة بما حل بالأمم المكذبة للرسل عليهم السلام .

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لعبد الرحمن السعدي، ١/٨٠٣ .

٧- ردود القرآن وأجوبته- سورة ﴿ق﴾ نموذجًا لذلك- تلقين لنا بالرد على السفهاء منكري البعث، فعلينا أن نفزغ إلى القرآن عند رد كل شبهة، وكل اعتراض، تحقيقًا لوعد الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾^(١).

٨- إن الشبهات والطعون التي أثارها منكرو البعث يظهر عليها الحيرة والاضطراب والتناقض العجيب والتنافر المعيب، ﴿فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيحٍ﴾ .

٩- إن في معرفة دلائل البعث من شأنه أن يستميل القلوب ويفتح آفاقًا جديدة في الدعوة إلى الله، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾

١٠- دلائل البعث في سورة ﴿ق﴾ هي ردود على منكري البعث، إلا أن التأمل فيها له أثر عظيم في زيادة إيمان المؤمن.

(١) سورة: الفرقان، الآية: ٣٣.

المصادر والمراجع

١. الإيتقان في علوم القرآن، لجلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٨٨ م.
٢. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود محمد العمادي الحنفي، وضع حواشيه: عبد اللطيف عبد الرحمن، دار الكتب العلمية، بيروت. د.ت.
٣. استدراك ما فات من بلاغة الآيات المتشابهات، د/سعد عبد العظيم محمد، دار ابن الجوزي، القاهرة، ٢٠١٥ م.
٤. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، لمحمد الأمين المختار الشنقيطي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة. د.ت.
٥. بدائع التفسير الجامع لما فسره الإمام ابن قيم الجوزية، جمعه وخرج أحاديثه: يسري السيد محمد، دار ابن الجوزي، الرياض، ١٤٢٧ هـ.
٦. البرهان في علوم القرآن، لبدر الدين محمد بن بهادر الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، ط ٤، ١٩٩٤ م.
٧. التسهيل لعلوم التنزيل، لأبي القاسم محمد بن جزي الكلبي، ضبطه وصححه: محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية، ١٩٩٥ م.
٨. التفسير البسيط، لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي، تحقيق: د. فاضل بن صالح الشهري، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤٣٠ هـ.
٩. تفسير التحرير والتنوير، لمحمد الطاهر ابن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤.
١٠. تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء إسماعيل بن كثير، تحقيق: سامي محمد السلامة، دار طيبة، الرياض، ١٩٩٧ م.

١١. تفسير القرآن العظيم، لمحمد بن صالح العثيمين، دار الثريا، الرياض ٢٠٠٤ م.
١٢. تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لأبي القاسم جار الله محمود الزمخشري، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٩ م.
١٣. تفسير المراغي، لأحمد مصطفى المراغي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ١٩٤٦ م.
١٤. تفسير النكت والعيون، لأبي الحسن علي الماوردي، تحقيق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت.
١٥. تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، لمحمد الأمين بن عبد الله الهرري الشافعي، إشراف ومراجعة: د. هاشم محمد مهدي، دار طوق النجاة، بيروت. د. ت.
١٦. تفسير شيخ الإسلام ابن تيمية الجامع لكلام الإمام ابن تيمية في التفسير، جمعه وحققه: إياد عبد اللطيف القيسي، دار ابن الجوزي، ١٤٣٢ هـ.
١٧. تهذيب الكمال، للحافظ المزي، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٤ م.
١٨. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لعبد الرحمن السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا، مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٠ م.
١٩. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، للإمام محمد بن جرير الطبري، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، الرياض، ٢٠٠١ م.
٢٠. الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٦٤ م.
٢١. الحياة الآخرة ما بين البعث إلى دخول الجنة أو النار، د. غالب بن علي عواجي، المكتبة العصرية الذهبية، جدة، ط ٢، ٢٠٠٠ م.
٢٢. الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، لأحمد بن يوسف المعروف بالسمين

- الجلبي، تحقيق: أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق.
٢٣. روح البيان، لإسماعيل حقي، دار الفكر، بيروت د.ت.
٢٤. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لأبي الفضل شهاب الدين الألويسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ٤، ١٩٨٥ م.
٢٥. زاد المسير في علم التفسير، للحافظ أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، دار الكتاب العربي، بيروت، ٢٠٠١ م.
٢٦. سلسلة الأحاديث الصحيحة، لمحمد ناصر الدين الألباني، الرياض، ١٩٩٥ م.
٢٧. سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، لمحمد ناصر الدين الألباني.
٢٨. صحيح مسلم، للحافظ مسلم بن الحجاج النيسابوري، تحقيق: عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٢٩. فتح الباري على صحيح البخاري، للحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، حقق أصولها وأجازها: الشيخ عبد العزيز بن باز، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٦ م.
٣٠. فتح الباري في شرح صحيح البخاري، لابن رجب، الغرباء الأثرية، المدينة المنورة ١٩٩٦ م.
٣١. فتح البيان في مقاصد القرآن، لأبي الطيب صديق بن حسن القنوجي، قدم له وراجعته: عبد الله الأنصاري، المكتبة العصرية، بيروت د.ت.
٣٢. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، لمحمد بن علي الشوكاني، حققه: د. عبد الرحمن عميرة، دار الوفاء، المنصورة، ١٩٩٤ م.
٣٣. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط ١٧، ١٤١٢ هـ.
٣٤. مباحث في علوم القرآن، لمناع القطاع، مكتبة وهبة، القاهرة، ٢٠٠٠ م.

٣٥. مجموع فتاوى ابن تيمية، لأحمد بن عبد الحلیم بن تيمية، جمع وترتيب: عبدالرحمن بن قاسم، طبعت هذه الفتاوى في مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، السعودية، ٢٠٠٤ م.
٣٦. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١ م.
٣٧. مرصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع لجلال الدين السيوطي، مكتبة دار المنهاج للنشر، الرياض ٤٢٦ هـ.
٣٨. المستدرك على الصحيحين: تأليف أبو عبد الله محمد الحاكم النيسابوري، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠ م.
٣٩. المسند، للإمام أحمد بن محمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وغيره، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٩ م.
٤٠. مساعد النظر للإشراف على مقاصد السور، لبرهان الدين البقاعي، مكتبة المعارف، الرياض، ١٩٨٧ م.
٤١. معالم التنزيل، للإمام أبي محمد الحسين الفراء البغدادي، تحقيق: خالد عبد الرحمن العك ومروان سوار، دار المعرفة، بيروت. د.ت.
٤٢. المعجزة الكبرى، لمحمد أبو زهرة، دار الفكر العربي.
٤٣. معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، القاهرة، ١٣٩٩ هـ، ١٩٧٩ م.
٤٤. مفاتيح الغيب، للإمام محمد الرازي فخر الدين، دار الفكر، القاهرة، ١٩٨١ م.
٤٥. المفردات في غريب القرآن، لأبي القاسم الحسين بن محمد، المعروف بالراغب الأصفهاني، دار ابن الجوزي، القاهرة، ٢٠١٢ م.

٤٦. المنهاج في شرح صحيح مسلم، لمحيي الدين أبي زكريا يحيى. دار إحياء التراث العربي بيروت، ط ٢، ١٩٩٢ م.

٤٧. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، لإبراهيم بن عمر بن أبي بكر البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ١٩٨٤ م.